شعر الطفولة الثوري لدى محمد مصطفى الغماري

–مقاربة موضوعاتية–

الدكتور جغدم الحاج

جامعة حسيبة بن بوعلي –الشلف–

– **المفهوم الاصطلاحي للثورة:** إذا كان المعنى اللغوي للثورة هو: الهيجان، والغضب، والوثوب، والظهور[1]، فإنّ المعنى الاصطلاحي، لا يكاد ينزاح عنه كثيراً، بل هو مجمل تلك المعاني، فالثورة في الاصطلاح تعني: عدم الرّضا بوضع ما والتعبير عن ذلك بالرفض والهيجان، والقيام برد فعل قوي وعنيف.

وفي المجال السياسي يستخدم مصطلح الثورة للتعبير عن تحرّك عنيف يقوم به شعب ما ضد سلطة حاكمة ولا تمثل ذلك الشعب، ولا تلبّي رغباته، وذلك قصد الإطاحة بها وبنظامها، واستبدالها بسلطة جديدة ونظام جديد[2].

– **المفهوم الاصطلاحي لأدب الأطفال:**

مما لاشك فيه، أن أدب الأطفال كل ما يتصل بالأطفال من حيث تنشئتهم الاجتماعية نفسيًا وجسميًّا ووجدانيًّا وعقليًّا، إذ ينحو "الهيتي إلى هذا المعنى قائلا: "وعليه فإن أدب الأطفال هو مجموعة الإنتاجات الأدبيّة المقدمة للأطفال، والتي

1– ينظر: ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، مج:04، دار صادر، بيروت، ط07، 2011، ص108.

2 – ينظر: يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكريا، دراسة فنية تحليلية، دار البعث للطباعة والنشر، الجزائر، ط01، 1987، ص55.

تُراعي خصائصهم وحاجاتهم ومستويات نموهم، أي أنه في معناه العام يشمل كل ما يقدّم للأطفال في طفولتهم من مواد تُجسد المعاني والأفكار والمشاعر..."[1].

ويؤكد، إسماعيل عبد الفتاح على أنّ أدب الأطفال هو ذلك الأدب، الذي قوامه القدرة على حمل العالم إليهم بأسلوب شيّق وممتع، ويستلزم أن تكون له في نهاية المطاف نتائج وثمرات من خلال التفاعل مع الحياة التي يعيشونها.

إذ أنّه "وسيط تربوي يُتيح الفرصة أمام الأطفال لمعرفة الإجابات عن أسئلتهم واستفساراتهم ومحاولات الاستكشاف واستخدام الخيال، وتقبل الخبرات الجديدة التي يُكسبها أدب الأطفال، ويتيح كذلك الفرصة أمام الأطفال لتحقيق الثقة بالنفس وروح المخاطرة في مواصلة البحث والكشف وحبّ الاستطلاع والدّافع للإنجاز الذي يدفع إلى المخاطرة العلميّة المحسوبة من أجل الاكتشاف..."[2]

نستنتج مما سبق، أن أدب الأطفال ليس له مجالٌ محدود بحواجز معيّنة، إذ يُقتصر فيه على المنفعة القائمة على تحقيق المعرفة، ويسمو بكل شيء يمكن أن يكون له صلة بالطفل، بمعنى أنه هو كل ما يؤدي إلى تغيير على المستوى النفسي والعقلي للطفل بوصفه تأثيراً ينفعل معه وجدانيًا.

وعليه، فإنّ "أدب الأطفال "تشكيل أو تصوير تخيلي للحياة والفكر والوجدان من خلال أبنيّة لغوية، وهو فرع من أفرع المعرفة الإنسانية العامة، ويعنى بالتعبير

---

1 – هادي نعمان الهيتي، ثقافة الأطفال، في مجلة عالم المعرفة، الكويت، ع123، 1998، ص148.

2– إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي، أدب الأطفال المنظوم، مركز الإسكندرية للكتاب، (د.ط)، 2008، ص10.

والتصوير فنيًّا ووجدانيًا عن العادات والآراء والقيم والآمال والمشاعر وغيرها من عناصر الثقافة، أي أنّه تجسيد فني تخييلي للثقافة..." [1]

ويرى كثير من النقّاد أنه" ذلك الأدب الذي يتوجّه للأطفال ويخاطبهم ويتجاوب مع قدراتهم بكل أساليبه وأشكاله ومواضيعه ولغته، على أن يأخذ بعين الاعتبار مسألة التدرّج في مستويات السنّ لدى الأطفال، واختلاف توجهاتهم وقدراتهم وتباينها بين سنّ وآخر وبين مرحلة وأخرى، وغير ذلك من الخصائص التي يتطلب من أدب الأطفال النظر إليها، والأخذ بها في توجهاته لمخاطبة الأطفال"[2].

– واقع شعر الأطفال في الجزائر:

إنّ المتصفح لتجربة شعر الأطفال في الجزائر، تجدها قد مرّت بمرحلتين اثنتين كانت الأولى بمثابة الميهاد الذي أسس لبزوغ هذا الشكل التعبيري، ومن روادها نذكر: محمد العابد الجيلالي، محمد الظاهر التليلي، محمد الصالح رمضان، محمد العيد آل خليفة، وغيرهم كثر، يقول محمد العيد مخاطبا الأطفال:[3]

قُم عَلى صوْتِ بِلادٍ هَتَك العَادِي حِماها
لا تلمني في هَواها أنا لا أهوى سِواهَا
ما لِقَومِي ضيَّعُوها فدهاها ما دَهاهَا

وأيّا كان الشأن، فإنّ الشعر في هذه المرحلة "لم يظهر كجنس أدبي مستقل، ذلك أنّ أدب الطفل لم يتبلور وقتئذ كأدب قائم بذاته له خصوصياته الفنيّة والنّفسية

1– قدرية البشري، أدب الأطفال وثقافتهم، دار الخليج، الأردن، ط1، 2011، ص199.
2– فاضل الكعبي، كيف تقرأ أدب الأطفال، مؤسسة الوراق، الأردن، ط1، 2012، ص45.
3 – محمد العيد آل خليفة، الديوان، ص87.

والتربويّة، وإنّما كانت هذه القصائد والمنظومات تدور في فلك المدرسة لتحقيق غايات تربوية ودينيّة وتأتي في ثنايا دواوينهم الشعريّة..."[1].

أمّا المرحلة الثانية فأطلقت العنان لعديد الشعراء-خصوصا بعد الاستقلال- لولوج عالم الطفولة الجزائري، ففي هذه الأثناء "عرف التأليف للطفل خطوة يمكن أن نقول عنها أنّها كبيرة في مجال التأليف الإبداعي ولاسيما في القصّة الطّفلية والأنشودة أو شعر الطفولة عمومًا، ولا أدل على ذلك من كثرة القصص التي تولّت نشرها المؤسسة الوطنية للكتاب والتي تتجاوز حسب تقديرنا الخميس..."[2].

وركحا على هذا الأساس، فإنه مع نهاية الأعوام السّبعين من القرن الماضي، التي تزامنت مع السنّة الدّولية للطفولة: "اكتسى التأليف الإبداعي الشّعري للأطفال... طابع الجديّة والمسؤولية، وهنا ما نلمسه عند تصفح مختلف الدواوين التي طالعتنا بها دور نشر عديدة، مما يؤكد أن ناشئة السّبعينات والثمانينات حظيت بأكبر عناية وكانت أوفر حظا من الأجيال التي سبقتها"[3].

ولعل من أبرز كتاب شعر الطفولة في هذه الفترة "محمد الأخضر السائحي" صاحب ديواني "همسات وصرحات" الذي يحوي مجموعة من القصائد موجهة للأطفال، و"أناشيد النصر"، "سليمان جوادي" وديوانه "ويأتي الرّبيع"، محمد ناصر، وديوانه "البراعم الندية" وبوزيد حرز الله وديوانه "حديث الفصول"، ويحي مسعودي

1- العبد جلولي، النصّ الشعري الموجّه للأطفال في الجزائر، رسالة دكتوراه مخطوطة، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة الجزائر، 2005، ص33.

2- محمد مرتاض، الموضوعاتية في شعر الطفولة الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993، ص1.

3- م.س، ص14.

وديوانه "نسمات"، ومحمد مصطفى الغماري وديوانه "الفرحة الخضراء" الذي هو موضوع دراستنا في هذه المداخلة.

- **موضوعات شعر الطفولة الثوري لدى محمد مصطفى الغماري:**

إن القارئ المتبصر للدواوين الشعرية – المذكورة سلفًا– يستكشف عناية هؤلاء الشعراء بالوطن الجزائر، مبرزين القيم الوطنية والقومية العربيّة، وما يرتبط بها من مفاهيم مختلفة مثل: حب الوطن والتغنّي به والدفاع عنه، والتمسك باللغة العربيّة والدعوى إلى النضال وتخليد الثورة وتمجيد الشهداء، والتذكير ببطولات مجاهدينا.

وهذا الأمر، يؤكده الناقد محمد مرتاض، قائلاً: "لقد استأثرت هذه الإشكالية باهتمام الشعراء... ولعل السّبب في ذلك هو أن الأطفال يتلقون تعاليمهم الدّينية السّمحة عن طريق وسائل مختلفة، لكن الحديث عن الثورة والتذكير بالشهداء، وتمجيد البطولات، قلما يلقى أحدا يتحدث عنه، وبما أن الطفل الصّغير يتلقى كل شيء ويسجله في مخيّلته ولا يكاد ينساه، فإن الشعراء اجتهدوا في زرع هذه البذور لتنمو مع نموّ طفولتهم الفنيّة، ويظلّوا متعلقين بها..."[1].

إنّ المقام، ها هنا يدفعنا للحديث عن النموذج الذي اخترناه في هذه الورقة البحثية والمتمثل في الشاعر "محمد مصطفى الغماري" الذي خصّه الناقد عبد الملك مرتاض قائلاً: وقد يشكل "مصطفى الغماري" وحده اتجاها شعريًّا قائما بنفسه في الجزائر... ومن المضامين التي عالجها الغماري بشيء من الاستمرار والإصرار معا دفاعه عن الإسلام والعروبة في الجزائر، وعن قضايا إسلامية وتحرّرية وإنسانية أخرى"[2].

1- م.س، ص9-10.

2- عبد الملك مرتاض، معجم الشعراء الجزائريين في القرن العشرين، دار هومة، الجزائر، 2007، ص260.

أوّلا: حبّ الوطن والتغنّي به:

أودّ، أن أقصّ شريط" موضوعة "حب الوطن والتغنّي به" من بوابة الناقد محمد مرتاض الذي أتى في نصه-الآتي ذكره- بهذه المقابلة الجميلة بين شاعرنا "محمد مصطفى الغماري" والشاعر الجاهلي "امرئ القيس" في محبّة الأوطان والارتباط بها.

يقول: "والفنان الذي يضيق بوطنه وبأرضه ويعاقها مؤثرا عليها وطنًا آخر لا شكّ في أنه مهووس غير أصيل، لأنّ المحليّة مطيّة إلى العالمية، والعالميّة البرّاقة لا يدركها شاعر كان من كان إلا إذا اشتهر في أرضه وبين عشيرته، إذ ما كان لامرئ القيس أن يكون شاعر العرب لو لم يُشع ذكره ويُذع صيته في قبيلته التي خلد ذكر أماكنها عبر شعره فألصقها بفنّه وألصقت به وغَدت أسماء (سقط اللّوى- الدّخول- حومل) كما لو حفرها الشاعر في ذاكرة كل من حفظ شعره....فلمَ لا تصبح أماكن (أوراس، فلاوسن الناظور) وغيرها تردّد على كل لسان...."[1].

يقول "محمد مصطفى الغماري" في قصيدة "محبة الأوطان"

محبّة الأوطان فر ض على الإنسان
أوجبه النّبي محمد الزكي
وجاء في الأخبار لا خير في الأشرار
شرّ النفوس نفس على الأوطان تقسو
تُباعد الأقاربا وتعشق الأجانبا
يُذلها الدوفيز وحجها "باريس"

فالشاعر في هذا النص الشّعري، يُحلِّقُ بنا حيث السنة النبوية التي يدعونا من خلالها نبيُنا (محمد صلى الله عليه وسلم) إلى محبّة الأوطان لدرجة التقديس لأنها

1- محمد مرتاض، الموضوعاتية في شعر الطفولة الجزائري، ص12.

فرضٌ من الفروض الواجبة على الإنسان التمسّك بها، حيث أوجبها على المسلمين حبيب الله محمد.

وفي مقابل ذلك، يذمّ الشاعر أولئك الأشرار الخونة الذين يخونون الأوطان، وقد جاءت أخبارهم لتكشف سيرهم ونفوسهم المريضة، حيث يستميزون بقساوة على من يخالفونهم الرّأي، ويبتعدون عن صفاتهم الحميدة، فتراهم في أحضان الغزاة الأجانب يرتمون، قبلتهم باريس، وهمهم بلد الجن والملائكة.

وفي النصّ-الآتي- يظلّ الشاعر أسيرًا لوطنه غارقًا في هيامه، تائهًا لا يستطيع الخلاص من حبّ يطارده، وغرابُ الليل يتلاعب بالوطن ويغيب بأركانه: فأيّ حبٍّ وأيّ وفاء وأيّ هوى هذا الذي نلحظه عند الشاعر الذي يكرّس نفسه فداءً للوطن حتى تعود له البسمة وتنبعث البهجة في نفوس الناشئة. يقول:[1]

في القلب نجواها ما عشت أهواها
أرْعى سجاياها عيناي عيناها
أحيا...وأحياها يا حبها العذري
يخضر كالموج في مقلة الفجر
ما أروع البهجة ما أروع الجزائر

هكذا انبرى "محمد مصطفى الغماري" لوطنه يستجلي روحه في شعره المفعم بالحماسة، مستخدمًا عباراته وصوره كأداة يغرس بها حبّ الوطن والاعتزاز به في

1- م.س، ص15.

نفسية الطفل، فالهدف من وراء ذلك إثارة الهمم وهزّ النّفوس حتى يهبُ شعبه ثائرا في وجه المستدمر، دافعه أمجاده وتاريخه وبطولاته، يقول :[1]

تلكم رياض الوطن يا أخوة العمر
هذي ربوع الآل هذي مجاليها
طابت مرابِعها طابت مشاتيها
نهوى حِمى السُمرا نهوى دواليها
والراية الخضرا بيض أياديها
والرملة الصفرا بالروح نسقيها
يا صيحة الثائر بالنور والنّار
يا حبنا الغامر بالنصر والعار

فالوطن، لدى "محمد مصطفى الغماري" بمثابة التّضحية، المجد والكبرياء، منبع الثائرين، بلاد الجبابرة، انطلق كالطائر الصّداح في سماء الجزائر يعزف لحن الثائر من جبال الجزائر الشاهقات، متّخذا حناجر المناضلين مصوّبا سهامه اتجاه من ركبوا قطار الخيانة والمكر والخديعة، ضاربين مبادئ أول نوفمبر غرض الحائط [2].

أدين لربّ البرايا وأهوى الرّسول الأمينا
وأعلم أن طريقي يضيق على المجرمينا
فيهوون "لاتا وعزى" ويهوون كفرًا مبينا
يجيدون عزف الشعار وكم باسمه يربحونا

1- محمد مصطفى الغماري، حديقة الأشعار، دار مدني للطباعة والنشر، الجزائر، (د.ط)، 2003، ص12.

2- م.س، ص14.

يقولون: إنّ التّحرر صعب على المسلمينا

يريدون باسم الجياع هواني على الظالمينا

ثانيا: تخليد الثورة وتمجيد الشّهداء

إن المتتبع لديوان "الفرحة الخضراء" يجد أنّ الشاعر "محمد مصطفى الغماري" لم يؤلفه لأجل الاستمتاع واللّهو مع الأطفال فحسب، بل نجده ألف هذه النصوص ليغرس في النفوس البريئة الصّورة الحقيقة التي قامت عليها الثورة الجزائرية الكبرى.

وعليه، فإن القصائد "تحمل شعاعًا يفجر القرائح ويبعث في نفوس الأطفال الاعتزاز والزّهو بالآباء، ويمنحهم سلاحًا وقوة يصارعان بهما المارقين عن الوطنية أو التصدّي للخونة الذين يعقون وطنهم ويتمنون لنعمائه الزوال..."[1].

ولأنه "لما كانت غرّة نوفمبر سنة 1954 اهتزت أرجاء الجزائر من (مغنيّة إلى (القالة) معلنة ثورة عارمة ارتعدت لها فرائص الاستعمار، ليس في فرنسا وحدها، بل في العالم كله، لما حملته إليه الأنباء من تضحيات جسام، وبطولات ثائرة ودفاعات مستميتة عن الإسلام واللغة العربية، والأرض والكرامة الإنسانية..."

وأمام هذا المدّ الجارف للثورة التحريرية الكبرى، استطاع الشاعر "محمد مصطفى الغماري" "الحديث بكلّ وعي وإخلاص عن هذه الثورة في شعر الطفولة، ليزرعوا في النشء منذ نعومة أظافرهم جوانب من تاريخ بلادهم المشرق وليذكروهم بأنّ الشهد لا يجني من غير لسع.... وهذه الثورة قد منحت هؤلاء خصائص متميزة ...."[2].

1- محمد مرتاض، شعر الطفولة، ص51.

2- م، س، ص 52.

إنّ هذا المنحى، تجسده قصيدة "عشاق البيضاء" التي جادت بها قريحة الشاعر "محمد مصطفى الغماري" مستهلاً نص-الآتي ذكره- بالعودة إلى تاريخ الأمة المجيد الضارب في أعماق الوجود الإنساني، مذكرًا المتلقي بمآثر هذه التربة التي أنجبت عدد الأبطال المغاور والرّجال الصّناديد الذين ثاروا على الظلم والطغيان مرددين كلمة" الله أكبر" التي كانت زلزالا على المستدمر، فترى المرتزقة صرعى ومن حولهم جُند الحق زهوى.

يقول:[1]

لهذه الأرض تاريخ وأحرار
ثاروا ولولا كتاب الله ما ثاروا
فيهزم الجمع...والرشاش هدّار
الله أكبر في أعماقهم أمل
زاه...وفي أذن الكفّار إعصار

وما يطرب القارئ / المتلقي لشعر "محمد مصطفى الغماري" في قصيد "يا أمّ الثورة" الطوفان الثوري الجارف الزّاحف على قوى الشر والعدوان، مبشرًا بالصباح الجديد الذي وإن طال أحاله، فإنه آت بفضل الثوار الأحرار الذين أضرموها نارًا على الأعداء يقول الشاعر:[2]

وتزهر في الدّرب النار وجدار الغربة ينهار
وشفاه الثورة أحرار أحرار نحن...وثوار
أحرار..يا جيل النار يا سيف الثورة والثأر

1- محمد مصطفى الغماري، الفرحة الخضراء، ص 26.
2- م، س، ص26.